تقنيات الحِجاج في نقد النثر العربي القديم
الرسالة العذراء لإبراهيم ابن المدبِّر (ت٢٧٠هـ) أُنموذجاً

م.د. مروة عبد الخالق بدري جامعة القادسية/ كلية التربية

الخلاصة

يتقصى هذا البحث التقنيات الحجاجية التي بُنيت عليها الرسالة العذراء لإبراهيم ابن المدبر (ت٢٧٠هـ)، بناءً على فرضية التساؤل الذي نهضت عليه فهي جواب على سائل يبتغي معرفة أسرار الكتابة القويمة والمحكمة التي تُدرج كاتبها ضمن سُنن العرب فصاحة وبلاغةً؛ لذا اعتمد كاتبُها على تقنيات حجاجية متنوعة أظهرها الاتكاء على الممكنات البيانية تشبيهاً واستعارةً وكنايةً رغبةً في تبليغ فحوى المقولة النقدية تبليغاً مقنعاً، وممكنات لسانية تساهم في بلورة التوجيه الحجاجي، ورسم المسار الاقناعي للمقولات النقدية التي اشتملت عليها الرسالة العذراء، ولعل أظهر تلك الممكنات اللسانية تمثلت في الأدوات الحجاجية التي وفرت معنيي التساوق والتعارض الحجاجيين.

Abstract:

This research investigates the argumentative techniques upon which the Virgin Epistle of Ibrahim Ibn Al-Mudabbir (d. 270 AH) was built, based on the hypothesis of the question upon which it was based, as it is an answer to a questioner seeking to know the secrets of sound and precise writing that places its writer within the traditions of the Arabs in eloquence and rhetoric; therefore, its writer relied on various argumentative techniques, which were demonstrated by relying on rhetorical possibilities, simile, metaphor and metonymy, in the desire to convey the content of the critical statement in a convincing manner. Linguistic tools contribute to the crystallization of argumentative guidance and the drawing of the persuasive path for the critical propositions contained in the Virgin Message. Perhaps the most apparent of these linguistic possibilities were represented by the argumentative tools that provided the meanings of argumentative consistency and contradiction.

التمهيد: الرسالة العذراء مضمونها وسبب تأليفها

يُرجع ابن المدبر السبب في نعت رسالته بالعذراء إلى كونها **((بكر معان لم تفترعها بلاغة الناطقين، ولا لمستها أكف المفوهين، ولا غاصت عليها فطن المتكلمين، ولا سبق إلى ألفاظها أذهان الناطقين))**[١]، ثم يوصي الكُتاب في اتخاذها مثالاً في المنافع البلاغية[٢]؛ ذلك لاشتمالها على منطلقات نقدية موصولة بالكتابة طبيعةً وأدواتٍ، وبالكاتب ثقافةً وسلوكاً، وفي فن الرسائل بنيةً ومضموناً وما ينبغي قوله أو الاحتراز منه. علاوة على ذلك أن الرسالة جاءت ملأى بملاحظات حول نقد الأسلوب وطرائف تشكيله، ونقد المعنى وكيفيات صوغه وهي في جوهرها منهج لإعداد الكُتاب للعمل في دواوين الدولة[٣].

جاءت الرسالة العذراء على هيأة جواب لسؤال طُرح على المؤلف **((استكشفتني عن غوامض آداب الكتابة: سألتني أن أقف بك على وزن عذوبة اللفظ وحلاوته، وحدود فخامة المعنى وجزالته، ورشاقة نظم الكتاب، ومشاكلة سرده، وحُسن افتتاحه وختمه، وانتهاء فصوله، واعتدال وصوله، وسلامتها من الزلل، وبعدها عن الخطل، ومتى يكون الكاتب مستحقاً اسم الكتابة، والبليغ مسلماً له معاني البلاغة، في اشاراته واستعاراته، وإلى أي أدواته هو أحوج، وبأي آلاته هو أعمل))**[٤].

يشتمل هذا التساؤل على استيضاح لأهم المقولات النقدية القارة في النقد العربي القديم الموصولة باللفظ والمعنى، والنظم وكيفية نسج الكلام، وافتتاح النصوص وخواتيمها، علاوة على ذلك صلة النص بالقارئ من جهتي: وصول المعنى، وسلامته من التكلف والخطل، فهذه المقولات إن توافرت في نص ما على أحسن وجه منحت الكاتب شرف الكتابة؛ لذا طفق بابن المدبر إلى تدبيج الرسالة العذراء مسهلاً حديثه عن شرف الكتابة الذي يراه أن **((أدوات ديوان جمع المحاسن وآلات المكارم طائعة منقادة لهذه الصناعة))**[٥]، أي صناعة الكتابة ومن ثم عرّج على ثقافة الكاتب, وما ينبغي أنْ يتعلمه[٦]، شريطة توافر الحس السليم، والقريحة الصحيحة[٧]، والتحلي بزيّ الكتاب في الملبس والمظهر الذي يكشف عن فطنة وذكاء[٨].

لما كانت كتابة الرسائل موصولة بالآخر/السائل، فإنّ ابن المدبر يقترح على الكاتب أنْ يراعي المُخاطَب **((على قدر ابهته وجلالته، وعلوه وارتفاعه، وتفطنه وانتباهه))**[٩]، ثم راح يُفصِّل في تخيّر اللفظ، وجودة التراكيب في التخاطب[١٠]، وهذه الجودة لا تتم من دون تحسين أدوات الكتابة وانتقاء اجودها[١١]، ورصد ساعات فراغ القلب، ونشاط الذهن؛ **((لأنّ سماحة النفس بمكنونها، وجود الأذهان بمخزونها))**[١٢].

لقد توافرت في الرسالة العذراء مقولاتٌ نقدية خالصة حاول ابن المدبر صوغها صوغاً حجاجياً مكثفاً يجعل السائل الذي استوقفه مسلماً لها، متبنياً منطلقاتها، ويتخذها منهجاً في عمله، ويبدو هذا التكثيف الحجاجي الذي بنيت عليه الرسالة العذراء راجع إلى الطبيعة الحوارية التي نهضت عليها الرسالة, فهي جواب لسؤال، وهذا الجواب كثف التقنيات الحجاجية لكي يبدو مقنعاً للسائل؛ لأنّ مقولات الحجاج ترى في معرفة

الخطيب لأولئك الذين يفكرون في كسبهم شرطاً أولياً لكلّ حجاج فعال[١٣], وما دام مدار الحجاج في الرسالة العذراء موصول بتساؤل عن غوامض الكتابة, فإنّ المحاجِج مطالب بتوسيع مديات الحجج وتقنيات عرضها ليحقق الاستمالة.

أولاً: تقنيات الأساليب البيانية:

لم تكن البلاغة بفنونها حكراً على النصوص الإبداعية، بل امتلكت فنونها بياناً ومعاني وبديعاً قدرة على صوغ النصوص التواصلية ذات الحمولات المعرفية، فليس من المستغرب أنْ نجد تشبيهاً أو كناية أو استعارة في نص نقدي؛ لأنّ البلاغة تغدو زخرفاً لفظياً من دون التعويل على الطاقة الحجاجية الكامنة في هذه الفنون على حد قول بيرلمان[١٤], فالوظيفة الجمالية التي تتأسس عليها الوجوه البلاغية تبدو تابعة للوظيفة الاقناعية في النصوص ذات الجدل الفكري والنقدي.

الوظيفة الحجاجية التي تمتلكها الوجوه البلاغية جعلت استعمالها ليس ((للتزيين والتزويق والامتاع فقط، وإنما أصبح يتوسل بها لصياغة التجارب وللكشف عن الحالات من جهة، وللتأثير والإقناع من جهة ثانية، وفي التقاء هذين الملمحين تتحد خصائصها ووظائفها في الوقت نفسه، فهي من جهة تكون أفضل أداة للتعبير عن الشخصية ووسيلة تفكيرها ورؤاها، وهي من جهة ثانية تخلق لدى المتلقي حالة إذعان وانقياد نفس مؤديين الى الاقتناع))[١٥], فتضطلع بمهمة تشكيل مجسات منطقية تبحث عن الترابط بين المؤدى البلاغي وسياق التلفظ بغية التوصل إلى الغاية المرجوة من استعمال وجه بلاغي في سياق تواصلي معرفي.

الترابط العلائقي بين الحجاج والبلاغة متأتٍ من ميدان الحجاج نفسه فـ((لما كان مجال الحجاج هو المحتمل وغير المؤكد والمتوقع، فقد كان من مصلحة الخطاب الحجاجي أنْ يقوي طرحه بالاعتماد على الاساليب البلاغية والبيانية التي تُظهر المعنى بطريقة أجلى وأوقع في النفس))[١٦] ويرى "الدكتور ماهر مهدي هلال" ((أنّ الأحكام النقدية التي ارتكزت على معايير البلاغة لتقرير حدي الجودة والرداءة اكتسبت ماهية جديدة حولت ثبوت القياس الى قياس احتمالي متغير بمتغيرات الاسلوب وتنوعه، فأسس النقد بذلك معنى جديداً يستقرئ النص بمنظور المثال البلاغي وامكانياته البنائية))[١٧]. وقد اعتمدت الرسالة العذراء على الأساليب البيانية في صوغ حمولاتها الحجاجية؛ لذا آثرنا مقاربة الوجوه البلاغية التي اشتملت عليها مقاربة تكشف عن المنطق الحجاجي المخبوء في جماليات البلاغة؛ لأنّ المؤثر البلاغي ذو وظيفة تتأرجح بين الفني ذي المؤدى الجمالي، والحجاجي ذي المؤدى الإقناعي.

لقد اشتملت الرسالة العذراء على مقولات نقدية شكل التشبيه مرتكزاً لسانياً واضحاً في جدلها النقدي الذي يتغيَّا استمالة المخاطَب بفحوى الحمولة النقدية المضمّنة في المقولة من ذلك قول ابن المدبر في شأن المعاني ((**المعاني وإن كانت كامنة في الصدور فإنها مصورة فيها، ومتصلة بها، وهي كاللآلئ المنظومة**

في أصدافها، والنار المخبوءة في أحجارها، فإن أظهرته من أكنانه وأصدافه تبيّن حسنه، وإن قدحت النار من مكانها وأحجارها انتفعت بها، وإلا بقيت محجوبة مستورة))[١٨]. لقد وردت هذه المقولة النقدية ضمن حديث ابن المدبر عن اللفظ والمعنى الذي اوجزه بأن الكلام لا يستحق جدارة البلاغة **((حتى يسابق معناه لفظه، ولفظه معناه، ويكون اللفظ أسبق إلى الأسماع من معناه إلى القلوب))**[١٩].

أشرنا في مفتتح التشبيه أنه شكَّل مركزيةً لسانية في المقولة النقدية وهذه المركزية متأتية من امكانية حذفه من سياق الكلام بيد أنّ المقولة النقدية تفقد كثيراً من حمولاتها الاقناعية؛ لأنّ التشبيه في هذا النص نقلَ الجدل النقدي من المجرد إلى المحسوس، فعبارة **(المعاني وإن كانت كامنة في الصدور فإنها مصورة فيها، ومتصلة بها)** مجردة تجريداً تاماً في المغزى المراد منها، وحين أردفها ابن المدبر بالتشبيه **(وهي كاللآلئ المنظومة في أصدافها، والنار المخبوءة في أحجارها)** نقلها إلى فضاء محسوس مغاير، تأتت هذه المغايرة من انتقال التشبيه بوساطة المقترب الحجاجي من التزين إلى الإقناع، وغدا حضوره في النص يشكل ركيزة توصل المعنى المجرد بالمحسوس، والمحاجِج حين يتكئ على التشبيه فإنه يبتغي إيصال الحجة إلى ذهن السامع/ المحاجَج[٢٠]؛ وابن المدبر بهذا التحول نقل السامع من فهم الفكرة مجردة إلى تخيلها وتصورها وتقريبها من الواقع الحياتي, وهنا تكون الاستمالة التي ينشدها الحجاج أكثر تجلياً، وأشد حضوراً؛ ذلك لأنّ الحجة التي يؤسسها التشبيه داخل الخطاب دائماً ما تكون أكثر اقناعاً من ايراد الحجة في مستواها الحقيقي المجرد التي جاءت لتحلّ محله[٢١]، كونها حجة مؤسسة لبنية الواقع تنهض بمهمة اظهار ما خفي من مكوناته وأشيائه، وتجلي غير المتوقع أو المنتظر من مكونات ذلك الواقع[٢٢].

إنّ المقولة النقدية التي صاغها ابن المدبر تنبني على مجموعة أقوال مرتبة ترتيباً حجاجياً ينشد استمالة السامع إلى الفحوى النقدية، تظهر هذه الأقوال جلية حين نرتبها اعتماداً على سُلميةٍ حجاجية من الأدنى إلى الأعلى

ن حضور المعنى وتوهجه
ح٤ المعاني كالنار المخبوءة في أحجارها
ح٣ المعاني كاللآلئ المنظومة
ح٢ المعاني مصورة فيها
ح١ المعاني كامنة في الصدور

يلاحظ على هذه الأقوال التي شكلت جملة التشبيه داخل النص النقدي أنها تساوقت على وفق تراتبية حجاجية ترتفع الكفاءة الإقناعية فيها كلما تقدمنا إلى الأعلى وصولاً إلى النتيجة (ن) وهذه الحجج جميعها تسعى إلى الكشف عن بيان أهمية حضور المعنى وتوهجه فجاءت الحجة

الرابعة بقوة اقناعية هي الأقوى قياساً بالحجج المتأخرة عنها، وعليه تكون تراتبية السُلَّم الحِجاجي فئة موجهة تجعل من الحجة التي ترد في أعلى السُلَّم دليلاً أنجع من التي ترد أدنى منها بالنسبة لـ(ن)[٢٣].

وثمة تشبيه مركزي آخر يُقرِّب به ابن المدبر آلية إدارة اللفظ داخل النص فيقول: **((وأدِرِ الألفاظ في أماكنها، واعرضها على معانيها، وقلبها على جميع وجوهها، حتى تقع موقعها، ولا تجعلها قلقة نافرة، فمتى صارت كذلك هجّنت الموضع الذي أردت تحسينه. [وأفسدت المكان الذي اردت إصلاحه] واعلم أن الألفاظ في [غير] أماكنها [والقصد بها إلى غير مظانها] كترقيع الثوب الذي إذا لم تتشابه رقاعه[ولم تتقارب أجزاؤه، خرج عن حد الجدة و] وتغير حسنه))**[٢٤].

إنّ جودة النص موصولة بجودة السبك، ودقة الانسجام بالشكل الذي يجعل الألفاظ تطلب بعضها بعضاً؛ لذا طفق ابن المدبر إلى التشبيه المحسوس فشبَّه إدارة الألفاظ النص وترتيبها بترقيع الثوب الذي يفصح عن حسن بهائه بتشابه رقاعه، وتقارب أجزائه، وخلاف ذلك يخرج عن حد الجدة ويتغير حُسنه فالتشبيه هنا دعَّم الحمولة النقدية بطاقةٍ اقناعية تجعل المتلقي يربط عملية الكتابة بعملية ترقيع الثوب؛ لأنّ اللفظ في النص يضارع الرقعة في الثوب وانسجام الأخيرة مع الثوب يُثري بهائه، وانسجام اللفظة مع النص تكشف عن حسنه.

إنّ حذف التشبيه من النص لا يخل بالمعنى المجرد للحمولة النقدية, بيد أنّه يخلخل الدعم الاقناعي لذا فهو تشبيه حجاجي مشبوب بمسحة جمالية يضطلع بوظيفة المماثلة بين شيئين مجرد ومحسوس والانتقال من الأول إلى الآخر يضمر غاية اقناعية؛ ذلك لأنّ ((المثال باعتباره حجة يقوي مزاعم المحاجّ، إذ يعلقها بمرجع يعضد المسار الحجاجي، ويحدث التماثل بين الآلات الاستدلالية والمقاصد المآلية))[٢٥], فقد خلق التشبيه واقعاً لسانياً جديداً مكَّن المقولة النقدية من النفوذ إلى عالم المخاطَب، وسلحها بقوة تبتغي حدوث الاقتناع عنده.

بقي أنْ نشير إلى حركية المسار الحجاجي الذي أحدثه التشبيه في المقولة النقدية من خلال رصد القوة الحجاجية لتراتبية الحجج قياساً إلى المقصد المآلي المنتظر من التشبيه أنْ يحدثه في الخطاب؛ لذا سنستعين بسلمية حجاجية ترتب الحجج وتصنفها على أساس فاعليتها الاقناعية ودعمها لنتيجة الخطاب،

ن: انتفاء حسن المعنى وحسن الثوب

ح٣: كالترقيع غير المتشابه

ح٢: وتفسد معانيه

ح١: الألفاظ القلقة تهجن النص

إنّ المسار الحجاجي الذي أحدثه التشبيه في النص يجعل المخاطَب يتلقى المقولة النقدية بطريقة مضادة, تُحدث مساراً حجاجياً غير مصرح به وهو: تخير الألفاظ بجودة وعناية يؤدي إلى تحسين المعنى مثلما توفر الرقع المتشابه حسناً للثوب.

وسياق آخر يتكئ ابن المدبر على الكناية في بلورة الاستلال الحجاجي؛ لنجاعتها في رسم المسار الحجاجي، وقوتها في الإبلاغ وإحداث التأثير المتأتي من علاقات الاستلزام فالكناية إحلال لفظٍ دالٍ على رديف المعنى المراد، وبقدر ما يدل التابع يتجلى المتبوع[٢٦], وبعبارة أخرى يقصد بالكناية ((اقتضاب الدلالة على ذات معنى بما له إليه نسبة))[٢٧] هذه النسبة بين اللفظ الدال ومتبوعه عماد الاستدلال الحجاجي، ومنطلق شروعه؛ إذ تكون الكناية بها تقنية اقناعية، والمحاجج حين يوظفها يبتغي إدراج السامع في المسار الاستدلالي؛ لقدرتها العالية في شحذ ذهن المتلقي وتحريكه صوب إدراك العلاقة الدلالية التي تربط "المكنى به" و" المكنى عنه " فهي حجَّة قوية يتوجه بها المُحاجج إلى عقل السامع؛ ليقوض من خلالها التعبير الكلامي الظاهر وينشئ دلالة رديفة أعمق، ومتى ما أكتشف المتلقي هذه الدلالة أقرَّ بصحتها[٢٨].

يظهر الاتكاء على الكناية في الرسالة العذراء في حديث ابن المدبر عن صناعة بلاغة المتكلم قائلاً: ((**من كان مرجعه فيها إلى اغتصاب ألفاظ من تقدم، والاستضاءة بكوكب من سبقه، وسحب ذيل حلة غيره، ولم يكن معه أداة تولّد له من بنات قلبه، ونتائج ذهنه الكلامَ الحر والمعنى الجزل، فلم يكن من الصناعة في عِير ولا نفير**))[٢٩].

يتطلب اكتشاف المعنى الحجاجي في هذه المقولة النقدية تتبع سلسلة من الدلالات الاستدلالية، وكداً ذهنياً في ربط السياقات الاستعمالية التي وفرتها الجملة الكنائية (اغتصاب الألفاظ، سحب ذيل حلة غيره، بنات قلبه) هذه الجمل والتعبيرات الكنائية لا تبتغي معناها الظاهر بل تتطلب مساراً استدلالياً مغايراً، يُتَوصّل إليه بلحاظ تفكيك السياق المقامي للمقولة النقدية، والتوصل إلى المجسات اللسانية التي يُدرج من خلالها المُحاجج السامع في التعبير ومن ثمَّ انتزاع الإقرار بفحوى التعبير الكنائي وما يراد منه، لأن الكناية الحجاجية تنشد تغييراً في موقف السامع من المعنى المُستلزم.

ثانياً: التقنيات اللغوية :

تنطوي اللغة التي تنهض عليها الرسالة العذراء على متواليات لسانية ذات حمولات اقناعية تساهم في بلورة التوجيه الحجاجي صوب الحجة الأقوى، ويتجلى عماد هذه المتواليات بأدوات

الربط وتحبيك المقولة النقدية، وهي ما يُصطلح عليها: بالعوامل والروابط الحجاجية. تندرج هذه الملفوظات التي اجترحها منظرو الحجاج اللغوي "ديكرو" وَ "انسكومبير"ضمن ((الوسائل اللغوية وامكانات اللغة الطبيعية التي يتوفر عليها المتكلم , وذلك بقصد توجيه الخطاب وجهة ما , تمكنه من تحقيق بعض الاهداف الحجاجية))[٣٠], وقد شددا ((على أنّ دراسة الجمل والملفوظات يجب أنْ تتم في استقلال تام عن المتلفِظ وما يتصل به من معطيات سيكولوجية, أو اجتماعية))[٣١]؛ بغية أنْ يكون الحجاج كامناً في اللغة نفسها، وبكفاءة المتكلم في صوغها وتشكيها.

تشكلت لغة ابن المدبر في رسالته من ملفوظات تحمل طاقاتٍ حجاجية يمكن توزيعها على مستويات متباينة لعل أظهرها:

١- التعارض الحجاجي

يتحقق التعارض الحجاجي بوساطة الروابط التي ((تربط بين قولين, أو بين حجتين على الاصح (أو أكثر), وتسند لكلِّ قولٍ دوراً محدّداً داخل الاستراتيجية الحِجاجيّة العامة))[٣٢], ويعد الرابط الحجاجي(لكن) نموذجاً لتجسيد علاقات التعارض؛ لتوسطه بين ((كلامين متغايرين نفياً وإيجاباً, فيُستدرك بها النفي بالإيجاب, والإيجاب بالنفي))[٣٣], واهتمام ديكرو وانسكومبير بهذا الرابط متأتٍ من كونه ويُعبر ((عن التعارض والتنافي بين ما قبلهُما وما بعدهُما))[٣٤]، هذا التنافي يدفع التوجيه الحجاجي باتجاه الحجة الأقوى.

لقد اشتملت الرسالة العذراء على مقولات نقدية تموضع الرابط الحجاجي (لكن) فيها تموضعاً فاعلاً في بلورة التوجيه ذلك في سياق توصيف عملية نظْم المعنى الجزل واللفظ الرائق إذ يقول: **((وشبهت الحكماء المعاني بالغواني، والألفاظ بالمعارض، فإذا كسا الكاتب البليغ المعنى الجزل لفظاً رائقاً، وأعاره مخرجاً سهلاً كان للقلب أحلى وللصدر أملا، ولكنه بقي عليه أن ينظمه في سلكه مع شقائقه كاللؤلؤ المنثور الذي يتولى نظمه الحاذق))**[35].

أودّ هنا أنْ ألفت الانتباه إلى قضية الاستدلال المنبثقة من الرابط الحجاجي (لكن) مفادها: إن التكلم بعبارة (أ) لكن (ب) يعني أن المتكلم يعرض حُجتين موصولتين بنتائج مضادة، والحجة التي تتموضع بعد الرابط تكون هي الأقوى بالنسبة للنتيجة[٣٦].

إنّ النظر في المقولة النقدية والوصول إلى الاستدلال الحجاجي يضعنا أمام حُجتين ح١: اللفظ الجزل أحلى من سواه، وهذه تخدم نتيجة من قبيل تخيروا لفظاً رائقاً، وح٢: الاهتمام بدقة النظم، وجودة السبك، وهذه تخدم نتيجة من قبيل: لا تتحقق حلاوة اللفظ من دون نظم حاذق، يمكن لهذا المخطط أنْ يكشف لنا المنطق الحجاجي في المقولة النقدية:

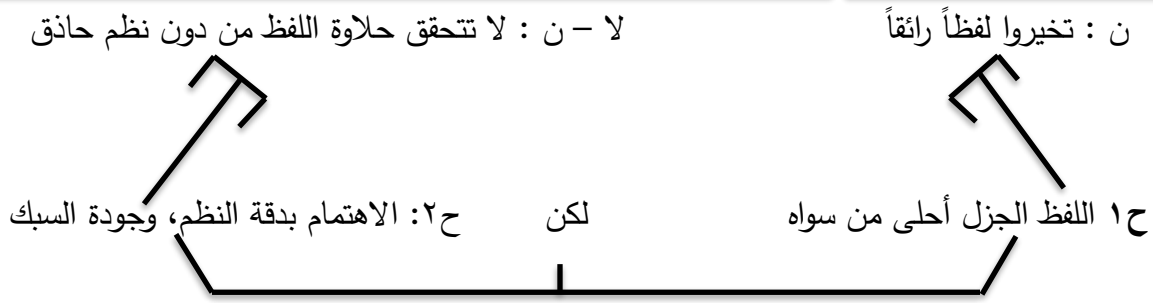

يكشف هذا المخطط عن الصلات بين الحُجج ونتائجها ويحدد النتيجة المضمرة في المقولة النقدية التي ينصب التوجيه الحجاجي عليها وهي (لا–ن)؛ ((كون الدليل الذي يأتي بعد "لكن" يكون اقوى من الذي يرد قبلها, وتكون له الغلبة, بحيث يتمكن من توجيه القول بمجمله))[٣٧], صوب الغاية المنشودة من المقولة النقدية.

تسري هذه الخطاطة التي تجسد التوجيه الحجاجي على مقولات نقدية أخرى اشتملت عليها الرسالة العذراء نحو اشتراطات مخاطبة الملوك بعبارة ابن المدبر **((لكنهم اجلّوا أقدار الملوك أن يمدحوا بما يمدح به العوام))**[٣٨]، واختيار لفظ محل آخر كما في قوله **((ونعلم أن الكيس هو العقل إذا عابوا به ضد الحمق ولكنك لو صفت رجلاً فقل: إن فلاناً لعاقل كنت قد مدحته عند الناس ولو قلت : إنه لكيس كنت قد قصرت في وصفه وقصرت في قدره إلا عند أهل العلم باللغة))**[٣٩].

وفي معرض حديثه عن نفي العجب بالتأليف ينصح ابن المدبر الكاتبَ الذي مُني بحب الكتابة وصناعتها قائلاً: **((ولكن اعرضه على البلغاء والشعراء والخطباء ممزوجاً بغيره، فإن أصغوا إليه، وأذنوا له، وشخصوا بالأبصار، واستعادوه، وطلبوه منك وامتزج، فاكشف من تلك الرسالة والخطبة والشعر اسمه، وانسبه إلى نفسك، وإن رأيت الأسماع منصرفة والقلوب لاهية، فاستدل به على تخلفك عن الصناعة وتقاصرك عنها، واسترب رأيك عند رأي غيرك من أهل الأدب والبلاغة))**[٤٠].

ويُلاحظ في هذه المقولات النقدية أنها بُنيت على التعارض الحجاجي بين ما قبل الرابط (لكن) وما بعده، وأن التوجيه الحجاجي مُسلطٌ على ما بعدها بوصفه الحجة الأنجع في بلورة الاستدلال الحجاجي؛ ذلك لأن (لكن) تقلل من الدفق الاقناعي المُقدم عليها، وتؤكده فيما يليها[٤١] ووظيفتها الحجاجية تكمن في **((المفاضلة بين دليلين يخدمان نتيجة ما تجعل الدليل الذي يقع بعده أقوى من الدليل الذي جاء قبله))**[٤٢]، وأحسب أنّ الاتكاء على الرابط الحجاجي (لكن) متأت من النزعة الحجاجية التي نهضت عليها الرسالة برمتها، فهي تبتغي تصويب وجهة نظر السائل

عن غوامض آداب الكتابة، اشتراطات جدتها؛ لذا بنيت المقولات النقدية على الاستدراك والتعارض والمفاضلة بين الحجج، بدفع السائل إلى الحجة الأقوى بوساطة اللغة نفسها.

٢-التساوق الحجاجي

يُراد بالتساوق الحجاجي تلك المتواليات اللسانية المتراصة التي تخدم نتيجة واحدة ولعل الرابط الحجاجي (حتى) أظهر ما يكشف عن فاعلية التساوق في بلورة الاقناع وتوجيه الخطاب من خلال علاقتي الاقتضاء التي تحقق سمة التلازم بين الحُجَّة والنتيجة؛ لذلك ((تُعد علاقة الاقتضاء ذات طاقة حجاجية عالية ؛ لأنَّها ككلِّ علاقة تصل الحُجَّة بالنتيجة المرصودة لها, ولكنَّها تتميَّز عن كلِّ علاقة بأنَّها تجعل الحُجَّة تقتضي تلك النتيجة اقتضاءً, والعكس صحيح, بحيث تغدو العلاقة ضرباً من التلازم بين الحُجَّة والنتيجة))[٤٣]، وهذا ما يمنح الخطاب دفقاً اقناعياً متأت من كيفية صوغ المتواليات اللسانية وتشكيلها.

لقد تبلور الاقتضاء الحجاجي في المقولة النقدية[٤٤] التي تكشف عن براعة الكاتب في رسم الصور الدالة إذ يقول: ((**بعد أن يكون الكاتب صحيح القريحة، حلو الشمائل، عذب الألفاظ، دقيق الفهم، حسن القامة، بعيدا من القدامة، خفيف الروح، حاذق الحس، محنكا بالتجربة، عالما بحلال الكتاب والسنة وحرامهما، وبالملوك وسيرها وأيامها، وبالدهور في تقلبها وتداولها ، مع براعة الأدب، وتأليف الأوصاف، ومشاكلة الاستعارة، وحسن الإشارة، وشرح المعنى بمثله من القول، حتى ينصب صورا منطقية تعرب عن أنفسها، وتدل على أعيانها**))[٤٥].

تكشف البنى اللسانية التي نهضت عليها هذه المقولة النقدية عن اقتضاء حجاجي بين الوحدات الدلالية التي تقدمت على الرابط الحجاجي (حتى) والوحدات الدلالية التي جاءت بعده، فالصورة الدالة تقتضي كاتباً بخصال خاصة، وثقافة واسعة هذا الاقتضاء يؤدي إلى ((نوعٍ من الحتميّة بين الحُجّة والنتيجة, فيحكم الترابط بينهما بشكل يومئ بأنّ الأولى تقتضي الثانية, والثانية تستدعي الأولى ضرورة))[٤٦]؛ فقد وجّه هذا الاقتضاء الخطابَ، وعزز من تماسكه؛ ذلك لأنّه ((ساعد على تقوية إيقان المتقبِّل بالنتيجة, بل أنَّ [الرابط] قبل ذلك يرسم له صورة المسلك الذي ينبغي عليه أن يقطعه للوصول إلى النتيجة, وهو في إثناء ذلك كله يقويّ النتيجة الّتي يروم الملفوظ إيصالها))[٤٧] إلى السامع, فهذا التعالق والتماسك بين المعنى والأسلوب الذي عبر عنه يُعد وسيلة سبك مُثلى كما يرى دي بوجراند[٤٨]؛ كونه يساهم في صناعة التأثير، وحمل النفس على الاقتناع بالمحتوى النقدي للمقولة.

وثمة تقنيات أخرى تحقق التساوق تتمثل بأدوات التعليل إذ تتوسط الأداة بين الحجة والنتيجة وتحاول أنْ تحقق التساوق الحجاجي التي يوجه المخاطب صوب غاية الخطاب من ذلك المقولة النقدية التي تكشف موقف ابن المدبر عما يجوز ولا يجوز في الرسائل إذ يقول: **((واعلم أنّه لا يجوز في الرسائل ما أتى في آي القرآن من الإيصال والحذف ومخاطبة الخاص بالعام، والعام بالخاص، لأنّ الله سبحانه وتعالى إنما خاطب بالقرآن اقواماً فصحاء فهموا عنه- جل ثناؤه- أمره ونهيه ومراده، والرسائل إنّما يخاطب بها قوم دخلاء على اللغة لا علم لهم بلسان العرب))**[٤٩].

إذ تنهض العلاقة السببية على بلورة التساوق الحجاجي الذي يضبط سيرورة المعنى النقدي بين السبب والنتيجة والوجه الجامع لهذا التساوق بني على التفسير والتبرير.

ويظهر من خلال ما تقدم أنّ "الرسالة العذراء" لإبراهيم ابن المدبر تنص على تقنيات حجاجية متنوعة حاول من خلالها ابن المدبر أنّ يقدم مقولات نقدية في نقد النثر وكيفية الكتابة النثرية؛ ولأنّ فرضية الرسالة بنيت على التساؤل, فإنّ تقنيات الحجاج الواردة فيها جاءت ذات تكثيف اقناعي بعيدة عن التأمل أو التأويل؛ لذا وجدناه يعتمد على التقنيات البيانية في تبليغ المحتوى النقدي للمقولة، فيوظف التشبيه بغية تقريب المعنى، ويستعمل الاستعارة؛ ليجعل المتلقي يدخل في سيرورة التفكير والربط بين علاقة القول النقدي بالاستعارة، وكذلك يعتمد الكناية في بلورة علاقة اللازم بالملزوم، وفي مستوى آخر يجعل اللغة النقدية ذاتها تشتمل على ستراتيجيات حجاجية توجه المخاطَب صوب نتيجة بعينها على نحو من التعارض الحجاجي تارة أو التساوق في الأخرى وما يتفرع من هذين التقنيتين من ممكنات لغوية تساهم في بلورة التوجيه الحجاجي الداعم لفحوى القول النقدي.

الهوامش

[١]- الرسالة العذراء لإبراهيم بن المدبَّر، بقلم الدكتور زكي نجيب محمود، دار الكتب المصرية بالقاهرة، ط٢، ١٣٥٠هـ-١٩٣١م، ٤٨.
[٢]- يُنظر، م . ن، ٤٨.
[٣]- يُنظر، النظرية النقدية عند العرب حتى نهاية القرن الرابع الهجري، د.هند حسين طه، منشورات وزارة الثقافة والإعلام- الجمهورية العراقية، ١٩٨١م، ٤٥.
[٤]-الرسالة العذراء، ٤.
[٥]- م . ن، ٥.
[٦]- يُنظر، م . ن، ٧.
[٧]- يُنظر، م .ن ، ٨.
[٨]- يُنظر، م .ن ، ٩.

[٩]- م . ن، ١٠.
[١٠]- يُنظر، م .ن ، ١٢ وما بعدها.
[١١]- يُنظر، م .ن ، ٢٢ وما بعدها
[١٢]- م . ن ، ٣٠.
[١٣]- يُنظر المصنف في الحجاج الخطابة الجديدة، شاييم بيرلمان وَ لوسي أولبرخت تيتكا، ترجمة د.محمد الوالي، دار الكتاب الجديد المتحدة، ط١، ٢٠٢٣م، ١٠٧.
[١٤]- يُنظر، البلاغة والحجاج من خلال نظرية المساءلة والعدالة لميشال ميار، ترجمة محمد علي القارصي، ضمن اهم نظريات الحجاج الغربية:٣٩٧
[١٥]- حجاجية الصورة البلاغية في الخطابة السياسية للامام علي(ع)، د.كمال الزماني، ضمن التحليل الحجاجي للخطاب،٤٦٣
[١٦]- التداولية والحجاج، مداخل ونصوص، د. صابر الحباشة، صفحات للدراسات والنشر، دمشق، ط١، ٢٠٠٨:٥٠
[١٧]- الرؤية البلاغية في قراءة النص:١٢
[١٨]- الرسالة العذراء،٣٩.
[١٩]- م . ن ،٣٩.
[٢٠]- يُنظر، الحجاج في كلام الإمام الحسين، ١٠٣.
[٢١]- يُنظر، في نظرية الحجاج:٩٣.
[٢٢]- يُنظر، الحجاج في الشعر العربي بنيته وأساليبه : ٢٤٢، و نظرية الحجاج عند شايم بيرلمان: د. الحسين بنو هاشم،ط١، ٢٠١٤، دار الكتاب الجديدة المتحدة، ٨٩-٩٠.
[٢٣]- يُنظر، الحِجاج والمعنى الحجاجي، أبو بكر العزاوي، بحث ضمن كتاب (التحاجج "طبيعته ومجالاته ووظائفه"، تنسيق: حمّو النَّقاوي، ط١، ٢٠٠٦، مطبعة النجاح الجديدة – الدار البيضاء، ٦٠.
[٢٤]- الرسالة العذراء، ٢٩-٣٠.
[٢٥] - الحجاج والحقيقة وآفاق التأويل بحث في الأشكال والاستراتيجيات، د. علي الشبعان، دار الكتاب الجديد المتحدة، ط١، ٢٠١٠م،٣٠٩.
[٢٦]- يُنظر، دلائل الإعجاز، ٦٦. وَنقد الشعر، أبو الفتح قدامة بن جعفر(ت٣٣٧هـ)، تحقيق كمال مصطفى، مكتبة الخانجي، ط٢، مصر ١٩٦٣، ١٨٧.
[٢٧]- المنزع البديع في تجنيس أساليب البديع، أبو محمد القاسم الأنصاري السجلماسي(ت٧٠٤هـ) تحقيق، علال الغازي، مكتبة المعارف،ط١، الرباط المغرب، ١٩٨٠، ٢٦٥.
[٢٨]- يُنظر: الحجاج في كلام الأمام الحسين: ١١٧، و الخطاب الحجاجي انواعه وخصائصه دراسه تطبيقية في كتاب المساكين للرافعي : هاجر مدقن رسالة ماجستير مقدمة إلى جامعة ورقلة كلية الآداب العلوم الإنسانية، إشراف: د . جمال كديل، عام ٢٠٠٣م: ٧٨.
[٢٩] - الرسالة العذراء، ٣٠.
[٣٠]- اللغة والحجاج: ١٤.
[٣١]- الحجاجيات اللسانية والمنـــهجية البنـيوية: رشيـد الراضي (بحث ضمن كتاب الحجاج مفهومه ومجالاته): ٢/ ٨٢-٨٣.
[٣٢]- اللغة والحجاج: ٢٧.
[٣٣]- معاني الحروف: تأليف الامام أبي الحسن علي بن عيسى الرمَّاني النّحوي مذيّلاً بالإعجاز اللُغوي لحروف القرآن المجيد، حقّقه وخرّج حديثه وعلّق عليه: عرفان بن سليم العشا حسُّونة الدّمشقيّ، ط١، ٢٠٠٥، المكتبة العصريّة بيروت: ١٩٢.
[٣٤]- معاني الحروف، تأليف الامام أبي الحسن علي بن عيسى الرمَّاني النّحوي مذيّلاً بالإعجاز اللُغوي لحروف القرآن المجيد، حقّقه وخرّج حديثه وعلّق عليه: عرفان بن سليم العشا حسُّونة الدّمشقيّ، ط١، ٢٠٠٥،
[35]- الرسالة العذراء، ٣٢.
[٣٦]- يُنظر، اللغة والحجاج، ٥٨.
[٣٧]- لامية العرب بين التواصل والقطيعة " مقاربة حجاجية " : عبد الرحمن أحمد اسماعيل كرم الدين، مجـ العلوم العربية، ع: ٢٨ رجب ١٤٣٤ هـ: ١٢٧.
[٣٨]- الرسالة العذراء، ١٥.

[٣٩]- م . ن، ١٥-١٦.
[٤٠]-م .ن ، ٣٤.
[٤١]- يُنظر، الحجاج في الشعر العربي بنيته وأساليبه، ٣٥٠.
[٤٢]- م .ن : ٣٥٠
[٤٣] - م . ن : ٣٣٥.
[٤٤] -للاستزادة في المقولات النقدية التي تشتمل على الرابط الحجاجي حتى يُنظر، الرسالة العذراء، ١٥، ٢١، ٣٦.
[٤٥]-الرسالة العذراء،٨.
[٤٦]-الحجاج في الشعر العربي بنيته وأساليبه: ٣٣٥.
[٤٧]- العوامل الحجاجية في اللغة العربية: ١٣٤.
[٤٨] - يُنظر: النّص والخطاب والإجراء: تأليف روبرت دي بوجراند، تر: د. تمّام حسّان، ط١ ١٩٩٨، عالم الكتب القاهرة: ٣٠١-٣٠٢.
[٤٩]- الرسالة العذراء، ١٨.

قائمة المصادر والمراجع:

أولاً: الكتب:

- البلاغة والحجاج من خلال نظرية المساءلة والعدالة لميشال ميار، ترجمة محمد علي القارصي، ضمن اهم نظريات الحجاج الغربية.
- التحاجج "طبيعته ومجالاته ووظائفه"، تنسيق: حمّو النَّقاوي، ط١، ٢٠٠٦، مطبعة النجاح الجديدة–الدار البيضاء.
- التداولية والحجاج، مداخل ونصوص، د. صابر الحباشة، صفحات للدراسات والنشر، دمشق، ط١، ٢٠٠٨.
- الحجاج في الشعر العربي بنيته وأساليبه : سامية الدريدي عالم الكتب الحديث، إربد الأردن،ط١، ٢٠٠٧م.
- الحجاج مفهومه ومجالاته دراسة نظرية وتطبيقية في البلاغة الجديدة، إعداد وتقديم، د. حافظ إسماعيلي علوي، عالم الكتب الحديث إربد – الأردن ٢٠١٠م الحجاج والحقيقة وآفاق التأويل بحث في الأشكال والاستراتيجيات، د. علي الشبعان، دار الكتاب الجديد المتحدة، ط١.
- حجاجية الصورة البلاغية في الخطابة السياسية للامام علي (ع)، د.كمال الزماني، ضمن التحليل الحجاجي للخطاب.
- دلائل الإعجاز :عبد القاهر الجرجاني، تحـ : د. محمد رضوان الداية و، د. فايز الداية، دار الفكر دمشق، ط١، رجب ١٤٢٨ هـ، ٢٠٠٧ م.
- الرسالة العذراء لإبراهيم بن المدبَّر، بقلم الدكتور زكي نجيب محمود، دار الكتب المصرية بالقاهرة، ط٢، ١٣٥٠هـ-١٩٣١م.
- العوامل الحجاجية في اللغة العربية : د. عز الدّين الناجح، ط١ , ٢٠١١م, مكتبة علاء الدين، دار نهى – صفاقس تونس.
- في نظرية الحجاج دراسات وتطبيقات : أ.د : عبد الله صولة، ط١، ٢٠١١ مسكيلياني، تونس.
- لامية العرب بين التواصل والقطيعة " مقاربة حجاجية ": عبد الرحمن أحمد اسماعيل كرم الدين، مجـ العلوم العربية، ع : ٢٨ رجب ١٤٣٤ هـ
- اللغة والحجاج : د. ابو بكر العزاوي ، ط٢، مطبعة العمدة،٢٠٠٦م.
- المصنف في الحجاج الخطابة الجديدة، شاييم بيرلمان وَ لوسي أولبرخت تيتكا، ترجمة د.محمد الوالي، دار الكتاب الجديد المتحدة، ط١، ٢٠٢٣م.
- معاني الحروف: تأليف الامام أبي الحسن علي بن عيسى الرمَّاني النّحوي مذيّلاً بالإعجاز اللُّغوي لحروف القرآن المجيد، حقَّقه وخرّج حديثه وعلّق عليه : عرفان بن سليم العشا حسُّونة الدّمشقيّ، ط١، ٢٠٠٥م، المكتبة العصريّة بيروت.
- المنزع البديع في تجنيس أساليب البديع، أبو محمد القاسم الأنصاري السجلماسي(ت٧٠٤هـ) تحقيق، علال الغازي، مكتبة المعارف،ط١، الرباط المغرب،١٩٨٠.
- النّص والخطاب والإجراء : تأليف روبرت دي بوجراند، تر : د. تمّام حسّان، ط١ ١٩٩٨، عالم الكتب القاهرة .
- نظرية الحجاج عند شايم بيرلمان : د. الحسين بنو هاشم، ط١، ٢٠١٤، دار الكتاب الجديدة المتحدة.

- النظرية النقدية عند العرب حتى نهاية القرن الرابع الهجري، د.هند حسين طه، منشورات وزارة الثقافة والإعلام-الجمهورية العراقية، ١٩٨١م.
- نقد الشعر، أبو الفتح قدامة بن جعفر(ت٣٣٧هـ)، تحقيق كمال مصطفى، مكتبة الخانجي، ط٢، مصر ١٩٦٣.

ثانياً: الرسائل والأطاريح:

- الحجاج في كلام الأمام الحسين -عليه السلام- : اطروحة دكتوراه للطالب عايد جدّوع حنّون، جامعة البصرة، ٢٠١٣م.
- الخطاب الحجاجي انواعه وخصائصه دراسة تطبيقية في كتاب المساكين للرافعي: هاجر مدقن رسالة ماجستير مقدمة إلى جامعة ورقلة كلية الآداب العلوم الإنسانية، إشراف : د. جمال كديل، عام ٢٠٠٣م